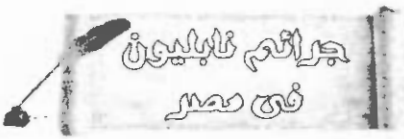

• المخادع الكبير:

عندما وصل نابليون إلى القاهرة حاول كسب أهلها من خلال إظهار احترامه وتقديره للديانة الإسلامية حيث كان يجالس العلماء فى الأزهر الشريف، ويهتم بمشاركتهم فى الاحتفالات الدينية كالاحتفال بالمولد النبوي الشريف، والاحتفال بتعيين أميرللحج، ولكن فى الحقيقة أن خداع المصريين النبهاء ليس أمرًا سهلاً، فكانوا يدركون فى داخلهم ما وراء تلك الحملة من نوايا سيئة، وميول استعمارية لبلادهم، وقد تأكد ذلك الاعتقاد على مدار الأشهر التالية التى شهدت انتهاكًا صارخًا لكرامة المصريين وأمنهم، وحريتهم بل وامتد الأمر إلى ماهو أسوأ من ذلك حيث أساءت الحملة إساءة بالغة إلى الأزهر الشريف، والديانة الإسلامية.فعلى الجانب المعيشي، اضطر نابليون إلى فرض ضرائب باهظة على المصريين لأجل تدعيم حملته، وابتزت قواته أموالهم، وقام جنوده بهدم كثير من المساكن والمساجد، والأبواب الضخمة بالشوارع بدعوى تحصين المدينة، وعلى جانب آخر عمل نابليون على فرض

الطابع الفرنسي على الأهالي حيث فرض على العلماء ارتداء وشاح على الكتف يحمل ألوان العلم الفرنسي الثلاثة، كما فرض على الأهالي تعليق شارة تحمل الألوان الفرنسية وهو ما لاقى رفضًا، واستنكارًا شديدًا من المصريين.

• ثورة القاهرة الأولى:

تزايد السخط تدريجيًا على الحملة، وانتشرت المقاومة الشعبية ضدهم حتى اندلعت ثورة القاهرة الأولى فى أكتوبر سنة 1798م، وبتحفيز من القسطنطينية حيث انتشرت الدعوة فى كل مكان لمقاومة الغزاة، وأصبحت مآذن المساجد منابر لتحفيز المصريين على المقاومة، وازداد عدد المتطوعين يومًا بعد يوم، واتخذوا من الأزهر الشريف مركزًا لهم، وبلغ عدد الثوار الذين احتشدوا به وحَوْله نحو خمسة عشر ألف مواطن، وأقام الثوار المتاريس بالشوارع وحملوا البنادق، وراحوا يهاجمون أحياء الفرنسيين ومواقع الجنود فى أحياء القلعة، والأزبكية والمقطم، وتم مواجهة تلك الثورة بكل عنف وقسوة من جانب الفرنسيين حيث أمر الجنرال "ديبوى" الذى كان مسئولاً عن أمن القاهرة بقتل الثوار، وكان جنوده يأتون برهائن أبرياء ويقتلونهم أمام أعين الناس لإرهابهم، وإجبارهم على الخضوع، والأدهى من ذلك أنهم شرعوا فى قتل المصريين أثناء صلاة الجمعة.

• تدنيس الأزهر الشريف:

مشهد يصور جرائم نابليون ضد البدو، والمماليك
الذين حاولوا جاهدين التصدى لجيوشه.

كان نابليون حينئذ خارج القاهرة، ولما وصلته أخبار الثورة عاد على الفور وأمر بنصب المدافع بالقلعة والمقطم، وراح جنوده يقذفون القنابل على الأزهر والحى المحيط به الذى كان ممتلئًا بالثوار، أما أبشع ما ارتكبه الفرنسيون فكان دخول الأزهر الشريف بخيولهم وتدنيسه. لقد دخل جنود نابليون ساحة الأزهر الشريف وربطوا خيولهم بعمود القبلة المقدسة، وقاموا بأعمال تخريب لمحتوياته وقاعاته فمزقوا الكتب الدينية وألقوا بنسخ القرآن الشريف على الأرض، وراحوا يدوسونها بأقدامهم القذرة، ولطخوا المكان ببصقهم وبولهم، وبرازهم، ويقول الجبرتي عن ذلك الحدث: "إنه تم تدنيس الجامع الشهير بأسوأ طريقة ممكنة من جانب الجنود الفرنسيين الغاضبين بسبب وفاة عدة عشرات من مواطنيهم، ومن بينهم الجنرال "ديبوى" قائد جيش العاصمة"، وقد بلغ عدد ضحايا تلك الحوادث نحو

أربعة آلاف قتيل من المصريين، ويعلّق نابليون مفتخرًا بتصديه العنيف لتلك الثورة بقوله: "كنا نقطع رءوس حوالى ثلاثين شخصًا فى كل ليلة".

- **اتفاقية العريش:**

أمام ذلك الوضع المأساوى كان لابد من اللجوء للتفاوض، وتحكيم العقل، فدارت مفاوضات بين أعضاء الديوان المصري ونابليون لوقف إطلاق النار تجنبًا لإراقة المزيد من دماء المصريين الأبرياء، وعلى جانب آخر اتفق السلطان العثماني مع الإنجليز على عقد اتفاقية لإخراج الفرنسيين من البلاد، وهى اتفاقية العريش، وفى تلك الفترة كان نابليون قد ترك كليبر خليفة له فى مصر بعدما اتخذ طريقه إلى الشام.. حيث أراد الاستيلاء على عكا، وإقامة قواعد عسكرية هناك يغزو من خلالها الشرق وبلاد الهند، لكنه لم يتمكن من فتح عكا، وكان كليبر خليفة نابليون فى مصر متشائمًا من مصير الحملة، وأراد الرجوع إلى فرنسا، مما جعله يوافق على تلك الاتفاقية، ولكن الإنجليز عادوا مرة أخرى، ورفضوا بعض بنود الاتفاقية.

- **ثورة القاهرة الثانية:**

تجددت الاشتباكات مرة أخرى بين الفرنسيين، ورجال المقاومة من جهة، والمماليك والعثمانيين من جهة أخرى، ودارت معركة ساخنة بين كليبر والأتراك العثمانيين فى منطقة عين شمس، وأوقع كليبر بهم هزيمة كبيرة فى تلك

الموقعة التى حملت اسم "موقعة عين شمس"، ولم تهدأ الأمور حيث انضم عدد كبير من الأهالي إلى فريق من المماليك والعثمانيين الذين تسللوا إلى القاهرة. وأعلنوا عن ثورة ثانية ضد الفرنسيين انطلقت من حى بولاق حيث هاجم الثوار مواقع الفرنسيين، وحاول كليبر تهدئة الأوضاع بالتفريق بين العناصر الثلاثة، وهم الأتراك والمماليك، والشعب..ونجح فى التفاوض مع الأتراك والمماليك، وحثهما على الانسحاب من الثورة فى القاهرة، وما إن حدث ذلك حتى قامت القوات الفرنسية بقيادة كليبر بمطاردة الأهالي فى كل شارع وحارة وأشعلوا النيران فى البيوت ودكوا الأحياء بالمدافع، ودمروا حى بولاق[1] بالكامل، وبذلك باءت الثورة بالفشل مرة أخرى.

• مقتل كليبر:

فى يوم 14يوليو استطاع شاب سوري مسلم، وهو سليمان الحلبي التسلل خلسة إلى مقر إقامة كليبر فى القاهرة، وطعنه طعنة قاتلة فى حديقة منزله كرد فعل تجاه أفعاله القذرة ضد المصريين، وقد قبض على سليمان الحلبي وتم تسليمه للجهات المختصة. واعترف فى التحقيقات بارتكابه للجريمة. وبأنه أخبر عددًا من شيوخ الأزهر بعزمه على القيام بقتل كليبر، وتم تسليم سليمان الحلبي إلى رجل يدعى "بارتيليمى" وهو يوناني الأصل انضم إلى الجيش الفرنسي، وكان عنيفًا قاسيًا خصصه

(1) بولاق،هو اسم فرنسي أطلقه الفرنسيون على هذا الحى، ومعناه، البحيرة الجميلة BeauLac

الفرنسيون للقيام بتنفيذ الأعمال القذرة والتعذيب، وكانت عقوبة تلك الجريمة قطع رءوس ثلاثة من شيوخ الأزهر، وتعذيب سليمان الحلبي حتى الموت..وهى عقوبة كانت شائعة فى ذلك الوقت تتمثل فى الإعدام بالتعذيب..وجرت على النحو التالى:

تم قطع اليد اليمنى لسليمان الحلبي، ثم قتله بتعليقه على خازوق لتأكله الطيور الجارحة، ومن المؤسف أن أفراد البعثة العلمية التى جاء بها نابليون أخذوا جثة سليمان الحلبي لأغراض التشريح..وأخذوا جمجمته إلى فرنسا لتُدرَّس للطلاب فى محاضرات التشريح حتى استقر بها الأمر فى متحف الإنسان.

- **استمرار المقاومة الشعبية، وجلاء الفرنسيين:**

ولكن المقاومة الشعبية لم تهدأ..حيث انتهز الثوار فرصة سفر نابليون إلى الشام، وانخفاض عدد جنوده بمصر لمواصلة كفاحهم ضد الغزاة، فتجددت الاشتباكات مرة أخرى فى القاهرة، والوجه البحرى، وانتشرت بأغلب مدن الصعيد وحتى أسوان، وعلى جانب آخر امتنع الأهالي عن تموين الجنود الفرنسيين بالغذاء والمؤن، وأمام ذلك التكاتف الشعبي، والمقاومة الباسلة اضطرت الحملة للرحيل عن مصر، وقد باءت بالفشل فى تحقيق أغراضها الحربية الاستعمارية.

• الجوانب الإيجابية للحملة الفرنسية:

• اكتشاف حجر رشيد:

رغم المساوئ الكثيرة للحملة الفرنسية على مصر إلا أنها حققت بعض الجوانب الإيجابية التى كان من أبرزها اكتشاف حجر رشيد، وفك طلاسم اللغة الهيروغليفية التى ظلت لغة مبهمة غير مفهومة لفترة طويلة من الزمن، ففى يوم 19 يوليو سنة 1799م اكتشف ضابط فرنسي وهو "فرانسوا- اكزافييه بوشار" حجرًا غريب الشكل ضمن أنقاض حصن بالقرب من مدينة رشيد، وكان يحمل نقوشًا لثلاث لغات مختلفة وهى: اليونانية، والديموطية، والهيروغليفية. استشعر الضابط أهمية ذلك الحجر، واستطاع العالم الفرنسي "جان فرنسوا شامبليون" من خلال المقارنة بين حروف اللغات الثلاث التى كتبت على الحجر التوصل لفك رموز اللغة الهيروغليفية.

• كتاب وصف مصر:

أنشأ الفرنسيون فى عام 1798م معهد مصر..وهو معهد علمي على غرار معهد فرنسا فى تلك الفترة، واشتمل على عدة تخصصات علمية وهى: الرياضيات، والفيزياء، والاقتصادالسياسي، والآداب، والفنون، وقد أقيم المعهد فى قصرين من قصور المماليك حيث كان بمثابة مركز متقدم للبحث العلمي، وقام العلماء الفرنسيون الذين التحقوا بهذا المعهد تحت رعاية كليبر بدراسة علمية واسعة لخصائص البيئة المصرية، فقاموا بدراسة المعادن وتصنيفها، ودراسة الحشرات وتصنيفها، ودراسة نباتات البلاد، والتنقيب

بالبحيرات، ووضع خرائط للمدن، وقياس الهرم الأكبر، وجمعوا كل تلك المعلومات والدراسات فى كتاب واحد وهو كتاب "وصف مصر".

لقد عكف أعضاء البعثة العلمية التى صاحبت حملة نابليون على دراسة الآثار والبيئة المصرية بشكل متأنٍ..وكان ذلك يمثل بداية لظهور علم المصريات (Egyptology) الذى انتشر فى العالم الأوربى.

• نابليون يشيد بعظمة مصر:

إنه على الرغم من عودة حملة نابليون خاسرة إلى فرنسا إلا أن نابليون زاد تألقه واكتسب شهرة واسعة ونجاحًا شعبيًا بعد غزوه لمصر ذات التاريخ الحضاري الحافل الذى طالما أدهش أهل الغرب، وخاصة الفرنسيين حيث تمكن من وصوله للأهرامات، وأبي الهول، تلك الآثار التى طالما شدت اهتمام الفرنسيين، وبعد وصوله إلى الشام وتجواله بشوارع مدينة القدس العظيمة فى فلسطين، وعندما سأله قادته: "كيف بدا لك أبو الهول؟". قال نابليون: "إنه مثال للعظمة، والشموخ، والحضارة المصرية العريقة".